

تفسير البحر المحيط

@ 286 @ تدخل على الممكن والممتنع نحو قوله { لَتَنِينَ أَشْرَكَتَ } . .
 { أَوْ لَمْ } * يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ * السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * كَانَتَا
 رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا
 يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَاهَا فِي الْوَسْطِ رَءِيسًا لِّمَنْ يَشَاءُ مِنْ غُلَامٍ وَجَعَلْنَاهَا
 فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّلْعَالَمِينَ * وَجَعَلْنَاهَا سَبْعًا سَبْعَةً
 مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
 وَالْأَنفَ وَالْأَفْئِدَةَ وَالْأَلْجُفَ كُلَّ شَيْءٍ فَلَكَ يُسَبِّحُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهَا
 لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ يَمُنُّونَ * فَهُمْ يُخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ
 ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
 تُرْجَعُونَ } . .

هذا استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ، ودلالة على تنزيهه عن الشريك ، وتوكيد لما
 تقدم من أدلة التوحيد ، ورد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على هذه المخلوقات
 المتصرف فيها التصرف العجيب ، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا
 يضر ولا ينفع والرؤية هنا من رؤية القلب . وقيل : من رؤية البصر وذلك على الاختلاف في
 الرق والفتق . وقرأ ابن كثير وحמיד وابن محيصن ألم يَرَ بغير واو العطف والجمهور {
 أَوْ لَمْ } بالواو . { كَانَتَا } قال الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد ، ولهذا
 قال { كَانَتَا رَتْقًا } لأنه أراد السماء والأرض ، ومنه أن الله يمسك السموات والأرض أن
 تزولا جعل السموات نوعاً والأرضين نوعاً ، فأخبر عن النوعين كما أخبر عن اثنين كما تقول
 : أصلحت بين القوم ومر بنا غنمان أسودان لقطيعي غنم . وقال الحوفي : قال { كَانَتَا
 رَتْقًا } والسموات جمع لأنه أراد الصنفين ، ومنه قول الأسود بن يعفر : % (إن المنية
 والحتوف كلاهما % .

يوفي المحارم يرقبان سوادي .

%)

لأنه أراد النوعين . وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين . وقال الزمخشري :
 وإنما قال { كَانَتَا } دون كن لأن المراد جماعة { السَّمَاوَاتِ } وجماعة { الْوَسْطِ }
 ونحو قولهم : لقاحان سوداوان إن أراد جماعتان فعل في المضمرة ما فعل في المظهر . وقال
 ابن عطية : وقال { كَانَتَا } من حيث هما نوعان ونحو قول عمرو بن شليم : % (ألم

يحزنك أن جبال قيس % .

وتغلب قد تباينت انقطاعا .

. %)

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : كانتا شيئاً واحداً فصل ا بينهما
بالهواء . وقال كعب : خلق ا السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحها
بها وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً . وقال مجاهد والسدي وأبو صالح : كانت السموات
والأرض مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضون كانت مرتتفة طبقة
واحدة ففتقها وجعلها سبعاً . وقالت فرقة : السموات والأرض رتق بالظلمة وفتقها ا بالضوء
 . وقالت فرقة : السماء قبل المطر رتق ، والأرض قبل النبات رتق { فَفَتَقْنَا هُمَا }
بالمطر والنبات كما قال { وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ }
قال ابن عطية : وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعدد النعمة والحجة للمحسوس بين ، ويناسب
قوله { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } أي من الماء الذي أوجده الفتق
انتهى . .

وعلى هذين القولين تكون الرؤية من البصر وعلى ما قبلهما من رؤية القلب ، وجاء
تقريرهم بذلك لأنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ،
ولأن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من
مخصص ، وهو ا سبحانه وقرأ الجمهور { رَتَقَا } بسكون التاء وهو مصدر يوصف به كزور